بين

الدكتور الطاهر مكى وثرفانتس

دكتور
محمد إبراهيم المسلمانى

بين

الدكتور الطاهر مكى وثرفانتس

دكتور
محمد إبراهيم المسلمانى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٨/٩٧٤٠

الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-6007-67-X

الناشر
مكتبة رشيد للنشر والتوزيع
الزقازيق ٢٣١١٠٠٣


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ
يونيو ٢٠٠٨ م

مقدمة

لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي كتب في الأدب المقارن ، منها كتاب يحمل عنوان (في الأدب المقارن ـ دراسات نظرية وتطبيقية) وهو يتكون من مقالات سبق نشرها في دوريات ٠

ومعظم هذه المقالات هي مقارنات بين الأدب العربي والأدب الغربي ، مثل : " شاعران أمام الموت : لوركا ونازك الملائكة " ، و " مصادر مي الأجنبية " ، و" حكايات عربية هاجرت إلى أوربا " ، و " التربادور : شعراء أوربيون تأثروا بالشعر العربي " ، و " أوربا عصر النهضة ترقص علي أنغام عربية " ، و " أصداء عربية في قصة إسبانية " ٠

وتدور هذه الدراسة حول المقال الأخير من هذا الكتاب وهو " **أصداء عربية في قصة إسبانية** " ، ويفصح عنوان المقال عن مضمونه لأنه يتحدث عن أثر الأدب العربي في الأدب الإسباني ، أي عن تأثر الكاتب الإسباني " **ثرفانتس** "

في قصة له عنوانها : " ربح الأصدقاء " بقصة عربية مجهولة المؤلف ومجهولة المصدر . وقد سبق أن نشر الدكتور الطاهر مكي مقاله هذا في مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٤ .

وقد شغل **ثرفانتس** كثيرا من الدارسين في كثير من الأمم ، فقد تناوله " بالدراسة الواسعة ، الإسبانيون والأوربيون والأمريكيون على السواء : تناولوا إنتاجه بالتحليل ، وحياته بالمتابعة ، ولكن العنصر العربي في أدبه لمّا يدرس ، لم يدرسه الإسبان لأنهم يأبون إلا أن يظل **ثرفانتس** أديبا إسبانيا خالصا ، متجاهلين الأسس العربية التي قامت عليها نهضة الأدب الإسباني في عصره الذهبي ، ولم يدرسه الأوربيون والأمريكيون لأنهم خلال ما مرّ من الزمن ، في الفترة التي ازدهرت فيها دراسات **ثرفانتس** ، كان واقع العرب مريضا مرّا ، فلم يكن هؤلاء ينظرون إليهم إلا من خلال حقدهم المغرض ، متجاهلين هذا الأثر الواضح في شموخ واستعلاء ! " (١)

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : في الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية ، ط القاهرة ، دار المعارف ، ط أولى سنة ١٩٨٨ ، ص ٣١٧ .

وتتكون هذه الدراسة من أربعة موضوعات ، أولها : حديث عن " جوانب من ثقافة الدكتور الطاهر أحمد مكي " خاصة ما تعلمه في طفولته ، لأن معلمه في (كتاب القرية) هو الذي أملاه القصة العربية التي تشبه قصة **ثرفانتس** . وثانيها : عن " جوانب من حياة **ثرفانتس** " ، أتحدث فيه عن طفولته وعن أسره في الجزائر لأن لهما أثرا في كتابة قصته : " ربح الأصدقاء " . وثالث موضوع هو : " نصوص القصة " ، وهي ثلاثة نصوص : نص قصة **ثرفانتس** - ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي - ، ثم النص العربي المجهول المؤلف والمصدر ، ثم النص العربي الذي أري أنه مصدر إلهام **ثرفانتس** لقصته " ربح الأصدقاء " . أما الموضوع الرابع والأخير : " مقارنات " ، ففيه مقارنة بين قصة **ثرفانتس** والقصة العربية التي أري أنه تأثر بها وهى قصة حقيقية من تراثنا العربي ، وقعت أحداثها في سنة ٢٠٣ هـ أثناء خلافة المأمون التي امتدت من سنة ١٩٨ إلي ٢١٨هـ ، أي من سنة ٨١٣ إلي ٨٣٣ م ، وهي قصة هروب وتخفي إبراهيم بن المهدي خوفا من ابن أخيه الخليفة المأمون .

وفي هذه الدراسة أحاول أن أصل للأصل العربي الذي تأثر به **ثرفانتس** ، وأقارن بينه وبين قصته " ربح

الأصدقاء " ، لعلي أصل إلي أوجه الاتفاق والاختلاف بين النصين ، وأتمني أن تكون محاولتي صوابا ، وإن لم تكن كذلك فحسبي أني حاولت قدر استطاعتي ٠

والله الموفق والمعين ،

د٠ محمد إبراهيم المسلماني

[١]

جوانب من ثقافة الدكتور الطاهر مكي

أ ـ الدكتور الطاهر مكي والأدب المقارن :

الدكتور الطاهر مكي من مثقفي هذا العصر وحاصل على جائزة الدولة التقديرية ، وممن لهم مؤلفات في الأدب المقارن ، أهمها كتابه الضخم المفيد : " الأدب المقارن - أصوله وتطوره ومناهجه " ٠ وقد ظهر في طبعته الأولى في مايو سنة ١٩٨٧ م ، ووصل عدد صفحاته إلى ٦٩٢ صفحة ٠ وعلى الرغم من أن الدكتور الطاهر مكي متخصص في الأدب الأندلسي ، فإن له مؤلفات في مجالات متنوعة في الأدب العربي ، شأنه شأن الرواد في هذا العصر ٠ فله مؤلفات في الأدب القديم وفي الأدب الحديث وفي النقد الأدبي ، وكتابات أخرى مترجمة من اللغتين الإسبانية والفرنسية إلى اللغة العربية ٠

وله إبداعات رأيت منها قصة قصيرة " رمزية " نشرها في مجلة الدوحة [١] تدور أحداثها على ألسنة الحيوان ، وهى تشبه حكايات ابن المقفع ، وأظن أنها نقد سياسي واجتماعي لحال المجتمع ٠

جدير بالذكر أن دراسة الدكتور الطاهر مكي في دار العلوم قد هيأت له مهمة السفر إلى أوربا وبالتحديد إلى (إسبانيا) لدراسة الأدب الأندلسي ، ثم عاد إلى دار العلوم مرة أخرى بعد حصوله على دكتوراه الدولة بإمتياز ، وهناك اطلع على الأدب الإسباني أي أدب أمة أخرى غير أدب الأمة العربية ، فكان هذا هو العامل الفاعل لجعله من رجال الأدب المقارن في مصر ٠ واللغة الإسبانية قريبة من اللغتين: الفرنسية والإيطالية ، لذلك استطاع أن يطلع على الأدب الفرنسي ويترجم منه إلى اللغة العربية ٠

من كلية دار العلوم بالقاهرة ، جاء الدكتور الطاهر إلى كلية آداب الزقازيق منتدبا ليدرّس الأدب الأندلسي والأدب المقارن ، ودرّس مادة الأدب المقارن لأول مرة في كلية آداب

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : مقال (أن يكون الحمار دكتورا ٠٠ مشكلة) حكاية رمزية ، الدوحة ، عدد أغسطس سنة ١٩٨١ من ص٦٢ إلى ص٦٤ ٠

الزقـازيق فـي العـام الجـامعي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ، وكانـت المحاضـرات التـي ألقاهـا علـى طـلاب الفرقـة الرابعـة ـ قسـم اللغـة العربيـة هـي البدايـة الحقيقيـة لكتابـه (الأدب المقـارن) الذي طبع للمرة الأولى بعد ما يزيد عن تسع سنوات وبالتحديد في مايو سنة ١٩٨٧ ٠ ثم كتب كتبا أخرى في الأدب المقـارن ، منها كتابه (فـي الأدب المقـارن ـ دراسات نظريـة وتطبيقيـة) وهو مقالات سبق نشرها من قبل ، وهذا يدل علـى اهتمامـه بالدراسـات المقارنـة منـذ زمـن بعيـد ٠ وكتـاب (فـي الأدب المقـارن الإسـلامي) وكتـاب (أصـداء عربيـة وإسـلامية فـي الفكر الأوربي الوسيط) ٠

ب ـ الروافد الثقافية الأولى للدكتور الطاهر مكي:

هنـاك أربعـة روافـد ثقافيـة أثـرت فـي التكـوين الفكـري للدكتور الطاهر مكي عندما كان طفلا في إحدى قرى (قنا) في صـعيد مصـر ٠ أولهـا : كتـاب القريـة ، وثانيهـا : المدرسـة الإلزامية ، وثالثها : الصحافة ، ورابعها : شاعر الربابة ٠

أولا : كتاب القرية :

على يد فقيه أعمى صارم وقاس ومخلص ، بدأ دراسـته فـي كتـاب القريـة وحفـظ القـرآن الكريـم وهـو فـي العاشـرة مـن عمـره ، ممـا سـاعد فـي تمكنـه مـن اللغـة العربيـة وجعلـه قـادرا علـى التعبير الصـحيح بالأسـاليب الراقيـة المعتمـدة علـى ثـروة لغويـة ضـخمة ، وجعلـه أيضـا قـادرا علـى النطـق الصحيح لحروف الكلمات ٠ يقول عن حفظه للقرآن الكريم وعن إفادته منه : " وأحسـب أن هذا الحفظ أسـهم إلى حد بعيد في تكوين ذوقي الأدبي ، فالعربية الفصحى في أسمى أسـاليبها هي التي تسـترعي اهتمامي وتشـدني إليها ، ولم تجد آداب العامة أو الخارج على الأسلوب العربي الفصيح طريقها إلى وجداني أو إعجابي ، مهما كانت الصور الطريفة التي تعبر بها ،

أو تصور من خلالها خلجات مبدعيها ، وأعترف أن بعضها يضم صورا جميلة وشفافة للغاية ، ولكنها مرهونة بلحظة عابرة ، ومساحة مكانية محدودة ، لا تتجاوز ، والأدب الخالد هو الذي يفرض نفسه علي تقلبات الزمان وتباعد الأمكنة . لكنني لم أفد من القرآن الكريم تمثل هذه الأساليب فحسب ، ولا الدربة على التعبير الصحيح والجميل ، ولا هذه الثروة اللغوية التي لا تنفد ، والتي تستجيب لك متى احتجت إليها ، ولكنني استفدت منه ما هو أعظم من ذلك كله : القدرة على إعطائي الأصوات العربية حقها كاملا من النطق الصحيح ، وهو مع الأسف ما نفتقده عند كثيرين ممن لم يحفظوا من القرآن الكريم شيئا ، أو حفظوا منه قدرا غير ذي بال ، فالحروف المتقاربة في النطق تخرج من أفواههم مختلطة يجور بعضها على بعض ، فيذهب مع هذا الخلط بهاء اللغة وموسيقاها من جانب ، وتغيم معاني الكلمات على كثيرين من جانب آخر " . (١)

ويحاول الدكتور الطاهر مكي أن يبيّن أن أساليب القرآن الكريم مختلفة منها ما هو صعب استيعابه ومنها ما يسهل فهمه وحفظه ، ويحكي تجاربه في هذا الأمر قائلا :

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : من مقال (رحلتي في الحياة بين كتاب القرية ودواوين الشعراء) ، الهلال عدد يوليو سنة ١٩٩١ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

" مبكرا ، وأنا طفل ودون توجيه من أحد ، أدركت الفرق بين أســاليب القرآن المختلفة ، فعلى حين بدت لي الســور التي تتحدث عن قضايا تجريدية صعبة ، كسورة (الكافرون) مثلا ، فتثقل على نفسي ، وأهرب منها واجبا ، كنت أدع الفقيه وما يقرر علينا من حفظ إلى سـور متقدمة لم نبلغها بعد ، ولكنها تتضمن قصصا ، فأحفظها حبا ، وأتغنى بها نشـوة وأجد فيما تتضمن من حوار شـيئا يقنعني ، ويلبي حاجة في داخلي ، وأستريح إليه دون أن أدرك لذلك سـببا، وأذكر من هذه السـور (سـورة المائدة) مثلا " . [١]

ثانيا : المدرسة الإلزامية :

بعد الكتاب ، ذهب إلي المدرسـة الإلزامية تلميذا ، دخلها وهو حافظ للقرآن الكريم ، وبدأ يتعلم أشياء أخرى علمية وأدبية لم يعهدها في الكتاب ، " التقيت بألوان جديدة من المعارف ، أحببتها كلها على تفاوت في هذا الميل ، وتأتي علي رأسها الرياضيات من حسـاب وهندسـة وشـيء من أوليات الجبر ثم الأدب أو المحفوظـات كما كانـوا يســمونها في تلك الأيام إلى جانـب كتـب المطالعـة

---

(١) نفســه : ص ١٧٨ .

والتاريخ وكانت حافلة بالموضوعات الجادة والمتنوعة والجذابة " . [١]

في المدرسة بدأت حاسة النقد في الظهور ، وأثناء دراسته للشعر ، بدأ ينقد ما يقرأ من أشعار ، ذمّ بعضها ووصفها بالسخف ، وأتى بالأدلة التي يراها ، ومدح أشعارا أخرى مثل (لامية العجم) للطغرائي ومنها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحيلة الفضل زانتني لدى العطل
حب السلامة يثني عزم صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وفي هذه المرحلة وقف حائرا أمام بعض ألفاظ الشعر لا يفهم معناها لحداثة سنه ، من هذه الألفاظ ، كلمة (الرسم) التي جاءت في مطلع قصيدة الشاعر أحمد شوقي (العودة من المنفى) :

أنادي الرسم لو ملك الجوابا
وأجزيه بدمعي لو أثابا

---

(١) نفسه : ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

ويصف هذه الحيرة قائلا : " كانت كلمة (الرسم) هذه تحيرني كثيرا ٠ وظللت كذلك زمنا طويلا ، فقد خيل إليّ أنه يعني (الرسم) بالمعنى الحديث ، وما أكثر ما وقفت إزاءها وساءلت نفسي : ماذا يريد شوقي من الرسم ، وأي رسم هذا الذي لا يرد عليه ، احتجت إلى زمن طويل كي أدرك أن معناها الأطلال الدوارس " ٠ (١)

ثالثا : الصحافة :

للصحافة فضل كبير على الكتاب في مصر لأن كثيرا من كتبهم جاءت على هيئة مقالات في الصحف والمجلات ، كما أن لها فضلا كبيرا علىّ القرّاء أيضا خاصة قبل ظهور (الراديو والتليفزيون) ، لأنها كانت الوسيلة الثقافية الإعلامية الفعالة في المجتمع المصري ٠

وعن الصحف والمجلات التي كان يقرأها الدكتور الطاهر مكي في هذه المرحلة وأثرت في تكوينه الثقافي ، يقول : " كان لصحيفة يومية ومجلة أسبوعية دور في حياتي وأي دور ، أما الصحيفة فهي الأهرام ، وأما المجلة فهي الرسالة " ٠ (٢) ومجلة الرسالة التي كان يرأس تحريها

---

(١) نفسه : ص ١٨٠ ٠
(٢) نفسه : ص ١٨٠ ٠

الأديب الناقد أحمد حسن الزيات ، قد قامت بدور كبير في تكوين كثير من الأدباء والنقاد في مصر منهم أستاذنا الدكتور الطاهر مكي الذي أصبح كاتبا في هذه المجلة عندما كان طالبا في المرحلة الثانوية • وأثناء اطلاعي وفحصي لمجلة (الرسالة) وقعت على مقالات له نشرها في تلك المرحلة من عمره ، صورتها وعرضتها عليه فقال لي : " إنها ذكريات قديمة ، كنت أكتب المقالات وأنا طالب في المرحلة الثانوية وأرسلها بالبريد إلى مجلة (الرسالة) فينشرونها "•

وكان الشاب الأديب الطاهر مكي يطلع على أعداد مجلة (الرسالة) ويتأثر بما فيها من مقالات في الأدب واللغة • وبعد اطلاعه على ما نشره طه حسين من فصول كتابه (على هامش السيرة) في هذه المجلة ، زاد حبه لها ، يقول : " من تلك اللحظة (أى لحظة قراءته لفصول كتاب : على هامش السيرة) ارتبطت بهذه المجلة بقوة ، فكان والدي يشتريها لي حين يذهب إلي المدينة (إسنا) لبعض أموره ، وعلى صفحاتها أعجبت بقوة بعدد من الكتاب أصحاب الأساليب الجميلة : أحمد حسن الزيات ، وحفظت من الذاكرة عددا من مقالاته ، ومحمد سعيد العريان ، وعلي طنطاوي ، ومحمود محمد شاكر ، ويجيء مصطفى صادق الرافعي

في منزلة وسط ، لأنني كنت أضيع فيما يكتب ، فلا أهتدي بسهولة إلى ما يريد أن يقول . ولم تجذبني كتابات العقاد في تلك الفترة من عمري " . (١)

وقد تعلقت صلة الشاب الطاهر مكي بالصحافة عندما ذهب إلى مدينة قنا طالبا في المعهد الديني ، يقول : هناك " سوف تتعمق وتتسع كل بدايات القرية ، ولم تعد قراءاتي وقفا على الأهرام والرسالة بل شملت الصحف والمجلات جميعها ، فقد سكنت الشارع الرئيسي في المدينة واتفقت مع فتى من باعتها أن يحمل إليّ الصحف التي تصل في المساء ويأخذها صباحا ، وأن يجيئني بالصحف التي تصل في الصباح ويستردها مساء ، مهما كان نوعها أو حجمها أو اتجاهها ، مقابل ثلاثين قرشا شهريا ، وهكذا لم تكن هناك صحيفة تصل مصر أو تصدر فيها إلا وتأتيني ، بعضها أمرّ به عجلا ، وبعضها أتوقف عنده طويلا ، وقليل منها أبقي عليه وأدفع ثمنه . وكنت أحمل بعضها معي أقرؤه في ساعات الدرس المملة ، الشيخ يقرأ أو يشرح ، والمجلة أمامي مخبأة ألتهم سطورها " . (٢)

---

(١) نفسه : ص ١٨٢ .
(٢) نفسه : ص ١٨٣ .

وقد عثرت على مقالين من مقالات الأديب : الطاهر مكي التي نشرها في مجلة الرسالة وهو شاب في المرحلة الثانوية ، مقال عنوانه (هذا الطوفان) ، وبعد حصوله على الثانوية وأراد أن يلتحق بالمرحلة الجامعية ، نشر مقالا عنوانه (بعد الامتحان) • في المقال الأول (هذا الطوفان) نجده منحازا للعربية الفصحى مشجعا للمحافظين عليها ثائرا على الكتابات الرخيصة آنذاك • وفي المقال الآخر (بعد الامتحان) يصور حيرة الطالب الذي يرغب دراسة العربية أمام ثلاثة أماكن ، هي : كلية اللغة العربية بالأزهر ، ودار العلوم ، وكلية الآداب ، وكان الشاب الأديب ثائرا على هذه الأماكن العلمية كلها •

بعد أن عرض هذا الأديب الشاب الثائر هذه الحيرة التي تنتاب الطالب بعد إنهائه المرحلة الثانوية ، استقر به الأمر في دار العلوم فانتظم بها طالبا للغة العربية وآدابها بعد أن اجتاز مسابقة عسيرة لدخول هذه الدار • يقول عنها : " إنها تمثل خطا فاصلا في حياتي الثقافية ، فقد تعهدتني بالمنهجية التي تضبط حركة قراءاتي ، وتقنن ذوقي ، وفتحت أمامي " أبوابا من العلم جديدة ، والتقيت فيها بعلماء أفاضل أضاءوا لي الطريق ، وعلى التأكيد تجنبت مع

توجيههم عثرات كثيرة ربما ما اهتديت إليها وحدي ، أو لعلني وقعت عليها بعد ثمن باهظ " . (١)

رابعا : شاعر الربابة :

شاعر الربابة أو (المداح) كما كانوا يسمونه الذي " يطوف بالمنازل نهارا يلتمس شيئا من الرزق مقابل مدح أصحاب البيت أو إنشاد بعض القصائد الدينية والصوفية ، أو كليهما " . (٢) وكان الطاهر مكي (الطفل) يعجب به ويستمع إليه ويتأثر بما يقول " لقد كنت أترقب هذا الشاعر حين يهبط القرية ، أو القرى المجاورة ، وفي أي ديوان ، ولم أكسل عن الذهاب إليه أبدا " . (٣) وكان شاعر الربابة ينشد القصص الشعبية كقصة أبي زيد الهلالي مصحوبة بأنغام الربابة والدف ، وربما كان الطاهر مكي " الطفل الوحيد الذي ينكمش علي نفسه في جانب وحده ، مأخوذا بما يسمع وواعيا ما يقال ، والشاعر ينتقل بهم من مغامرة إلى أخرى ، وهم مأخوذون بهذه البطولة ، تثير فيهم ذكريات قديمة متوارثة ، فقد كانوا في الحق عربا وافدين " . (٤)

---

(١) نفسه : ص ١٨٥ .
(٢) نفسه : ص ١٨٥ .
(٣) نفسه : ص ١٨٢ .
(٤) نفسه : ص ١٨٢ .

[٢]

جوانب من حياة ثرفانتس

أ ـ طفولة ثرفانتس :

هو ميجويل **ثرفانتس** ، لا يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد ، ومن المرجح أنه ولد في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر سنة ١٥٤٧ حيث يكون عيد القديس ميخائيل ، أو ميجويل بالإسبانية تبركا به .[١]

ولم يكن مكان مولده معروفا لأن الناس في القرن السادس عشر لا يهتمون بمثل هذه الأمور ، وقد عرف مكان مولده مصادفة عندما عثر أحد عمال الحفر على سجل كنيسة (سانتا ماريا) أي (القديسة مريم) في بلدة صغيرة على بعد حوالي عشرين ميلا شمال شرق مدريد

(١) انظر : هنري بيرلين : من مقال (ميجويل ثرفانتس ـ ذكرى مرور أربعمائة سنة على مولده) ، ترجمة : ز . ي . ع . الكاتب المصري ، عدد أكتوبر ١٩٤٧ ، ص ٤٦ .

هي (الكالا دى هيناريس) ، وفي سجل الكنيسة تاريخ تعميد ميجويل **ثرفانتس** وهو التاسع من أكتوبر سنة ١٥٤٧ .(١) وكانت وفاته يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ ، ومن المصادفات الغريبة أنه كان اليوم الذي مات فيه شكسبير الشاعر الإنجليزي العظيم . (٢) وبذلك يكون **ثرفانتس** قد عاش ٦٩ سنة .

كان أبوه (رودريجو) يمارس الطب والصيدلة بلا مؤهل (كأنه يداوي بالعطارة) ، لأنه " عندما كان شابا واظب على الاستماع إلى كثير من المحاضرات الطبية ، غير أن ضيق ذات يده وعدم دفعه رسوم الدراسة اضطره إلى الانقطاع عنها ، واستمر الرجل يدرس بنفسه ولكنه لم يحصل على دبلوم حقيقي في الطب " (٣)

ورغم أن والد **ثرفانتس** كان نبيلا إلا أنه كان فقيرا " لا ممتلكات له ، ومن المفروض أن النبيل يعيش من دخل

---

(١) انظر : الدكتور غبريال وهبة : دون كيشوت بين الوهم والحقيقة ، ط القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ ، ص ٢٣ . وانظر : صامويل بنتام : مقال (مقدمة) دون كيخوته لثرفانتس ، ترجمة : ممدوح عدوان ، بحث ملحق بكتاب جريدة القاهرة الأسبوعية : ثرفانتس - دون كيخوته ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ط القاهرة ، دار الهدى للثقافة والنشر ، القسم ٤ ، جـ ١ ، سنة ٢٠٠٥ ، ص ٦٩ .

(٢) انظر : هنري بيرلين : المقال السابق ، ص ٥٥ .

(٣) الدكتور غبريال وهبة : السابق ، ص ٢٤ .

ممتلكاته ولا يلوث يديه بالعمل ، وإذا لم تكن لديه رغبة في أن يركن إلى الخمول ، فإن الكنيسة أو الملك يتيحان له فرصة خدمتهما " ٠ [١] واضطر والد **ثرفانتس** إلى العمل طبيبا بلا رخصة كي ينفق على زوجته وأطفاله الجوعي ٠

وأم **ثرفانتس** (دنيا ليونور) هي أيضا من أسرة نبيلة ، وكانت تعمل كثيرا في البيت دون خدم لها لأنها تعرف ضيق يد زوجها محاولة أن يكون مظهر البيت لائقا لأسرة من النبلاء ٠ لذلك وقعت الأسرة في كثير من المتاعب المالية وأثقل كاهلها بالديون ٠

كان كل من والد **ثرفانتس** ووالدته يعيشان حياة ذات وجهين ، وجه باطن ووجه ظاهر ، الوجه الباطن هو حياة العمل ، حياة يعمل فيها والده طبيبا خارج البيت ، وتعمل أمه كثيرا داخل البيت ، " تصحو مع أول خيوط الفجر ، وتستمر تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، فهي تطهو الطعام ، وتصنع الجعة ، وتقدد اللحم بالتدخين ، وتصنع الشموع وأوراق اللعب ، وتغزل وتنسج وتحيك الملابس " ٠ [٢]

---

(١) نفسه : ص ٢٣ ٠
(٢) نفسه : ص ٢٥ ٠

والوجه الآخر من حياتهما هو حياة (النبلاء) ، فقد كان والد **ثرفانتس** " يغادر بيته كل يوم متخفيا وقد تدثر بزي النبلاء الأسود ، مغطيا رأسه بقبعة وملتفا بعباءة ، ومتمنطقا بسيف وهو يدق الأرض بقدميه شأن كل رجل نبيل وكان لابد من تابع يسير وراءه حاملا ما يحتاج إليه ، فسار خلفه رجل مهلهل الثياب حافي القدمين يحمل حقيبة وأحيانا بعض الكتب . وما إن يقطع الشارع ويستدير بعيدا عن نظر زوجته حتى يعود إلى طبيعته متخففا من قيود النبالة حتى يبلغ شاطيء النهر حيث ينتظره مرضاه في أكواخهم وكهوفهم " . [١] وفي الغالب لم يكن يجد مع هؤلاء المرضى الفقراء ما يدفعونه من نقود ، فيعطونه قطعة جبن ، وهذه الحال جعلت زوجته بائسة " لا لأن زوجها يعالج الفقراء ، ولكن لأنه كان يزاول هذا العمل رغم أنه من النبلاء الذين يستنكفون كسب قوتهم بالعمل . ولكن ماذا تفعل أمام الأفواه الجائعة في الأسرة ، لقد بذلت ما في وسعها لإخفاء الأمر " . [٢]

وكانت (دنيا ليونور) والدة **ثرفانتس** هي الأخرى تظهر بمظر النبلاء ، فعندما تخرج لحضور القداس في الصباح المبكر ، " تضع لثاما على وجهها ، وتتدثر بالسواد

---

(١) نفسه : ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفسه : ص ٢٤ .

شـأنها شـأن الملكة ، وذلك حتى تبدو بمظهر (دنيا ليونور دى ثرفانتس) ، السيدة النبيلة ، وكان الناس يرونها كما ترى نفسها ، ولم يكن أحد يعلم فيما عدا القس حقيقة الحياة التي تحياها " . (١)

عاش الطفل ميوجيل **ثرفانتس** في هذه الأسرة ورأى أمامه هذا الإزدواج في حياة أمه وأبيه : الصرامة والجد والعنف في سلوك أبويه عندما يظهرا بمظهر النبلاء ، واللطف والرحمة والشفقة عندما يظهرا بمظهر عامة الناس . " وهكذا نجد الصغير ميوجيل **ثرفانتس** قد عاش منذ طفولته في عالم كانت الحقيقة فيه ذات وجهين ، كانت حقيقة والدته وهى في المطبخ تطعمه وتضحك معه إذا لم يكن التعب برح بها ، ثم حقيقة والدته وهي في قاعة الاستقبال تشير بيدها لتطرده خارجا كما لو كانت لا تعرفه . وعندما نما قليلا كان أحيانا يصحب والده فلا يراه صامتا أو مقاطعا ومعارضا عندما يتحدث مع مرضاه . بل يشاهده عطوفا رقيقا يؤدي عمله في سرعة وحذق . ثم يتبدل الحال عندما يغادر .. المرضى ويقترب من منزله ، فيرى **ثرفانتس** ملامح

---

(١) نفسه : ص ٢٥ .

الغضب والقلق تعود لوجه والده حتى وهو يسير شامخ الأنف بخطوات النبلاء " . [١]

وبعد أن ثقلت الديون على الأسرة ، حاول والد **ثرفانتس** تغيير حياة النفاق هذه بأن يحيا حياة عادية في حي آخر من المدينة يكون حيا فقيرا ، حيث لا يعرفه الناس ولا يظهر بمظهر النبلاء ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بسبب رفض زوجته . وبعد شهور قرر أن يترك مدينة (الكالا) " وأن يبيع المنزل والأثاث ليسدد ديونه ، وأن ينتقلوا إلى مكان آخر ليبدأوا حياة جديدة . أمسكت (دنيا ليونور) دموعها بعد أن أحست أن ذرفها لن يجدي شيئا وهي ترى عزم زوجها الأكيد " . [٢] وبسرعة نفذ قراره وباع المنزل والأساس بعدما أدرك أن الحياة في هذه المدينة بهذه الطريقة مستحيلة ، وركب **ثرفانتس** مع أبويه وإخوته " عربة كبيرة وقد علت الدهشة وجوههم ، ولم يحملوا معهم سوى القليل من المتاع ، وانطلقوا يجدون في البحث عن حياة جديدة " . [٣]

---

(١) نفسه : ص ٢٥ .
(٢) نفسه : ص ٢٦ .
(٣) نفسه : ص ٢٦ .

وصلت الأسرة إلى أقرب مهرجان في مدينة قريبة ، والمهرجان يشبه (المولد) عندنا ، " ففي تلك الأيام كان لكل مدينة مهرجان سنوي يستمر أسبوعا احتفالا بعيد قديس من القديسين " . [١] ومارس والد **ثرفانتس** في هذا المهرجان عمله في علاج المرضى وربح كثيرا ، واشترى عربة وحصانا ، وأخذ يتنقل بين المدن من مهرجان إلى مهرجان ما يزيد عن عشر سنوات ، ثم استقر في مدريد عام ١٥٦٦ بعد أن ضاق بحياة التجول ، وكان عمر **ثرفانتس** يومها تسعة عشر عاما .

وأثناء هذا التجول تعلم **ثرفانتس** اللاتينية من الرهبان والقساوسة وقرأ بعض مؤلفات أرسطو وتعلم قليلا من الرياضيات والفلك . " وقد استدل الذين ترجموا له على فرط ميله للقراءة من قوله إنه كان يقرأ كل ما يقع في يده حتى قصاصات الورق التي يلتقطها من الطريق ، وقد اعتاض عن الدراسة المنظمة بمعرفة الناس والحياة معرفة يغبطه عليها الدارسون والعلماء " . [٢]

---

(١) نفسه : ص ٢٧ .
(٢) أحمد محمد الشنواني : كتب غيرت الفكر الإنساني ، الألف كتاب الثاني ، جـ ٧ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥ ، ص ١٠٢ .

ب ـ ثرفانتس في الجزائر :

كانت هناك حروب دينية بين المسلمين والأوربيين ، وكانت أوربا تخشى تقدم الأتراك العثمانيين في بلادها ، وكانت فتوحات " المسلمين العظيمة وانتصاراتهم الباهرة قد أدخلت الرعب في قلب الحكومات الأوربية " . [١]

كان **ثرفانتس** واحدا من الجنود الإسبان العاملين في إيطاليا ضمن الحلف الأوربي المقدس الذي دعا إليه البابا (بيوس الخامس) كي يوقف تقدم المسلمين في أوربا ، وقد تم قبول **ثرفانتس** جنديا في لواء ديني يتبع الجيش الملكي بعد أن قدَّم شهادة تثبت أنه من أسرة مسيحية خالصة ليس في عروقها أي دماء يهودية ، وأنه ليس لقيطا ، ولا ينحدر من سلالة موريسكيين أو مرتدين . [٢] وأظهر شجاعة في المعارك

(١) نفسه : ص ١٠٢ .
(٢) انظر : صامويل بنتام : (مقدمة) دون كيشوت لثرفانتس ، سبق ذكره ، ص : ٧٠ . وانظر : واسيني الأعرج : مقال (سرفانتس و الجزائر ـ رحلة البحث عن الرواية) ، الدوحة ، عدد يونيو ٢٠٠٨ ، ص ١٢٦ .

التي اشترك فيها ، وهناك التقى بأخيه [١] الذي سبقه بالعمل جنديا ، وفي إحدى هذه المعارك أصيبت يده اليسرى وظلت مشلولة طول حياته . [٢]

وفي شهر سبتمبر سنة ١٥٧٥م ، بعد عدة سنوات من عمله جنديا في إيطاليا ، شرع **ثرفانتس** ومعه أخوه في العودة إلى إسبانيا ، وكان يحمل معه رسالتين تذكيه إحداها من (دون جوان) النمساوي والأخرى من (دون سيسا) السفير الإسباني في نابولي إلى ملك إسبانيا ، وفي الطريق إلى إسبانيا ، بالقرب من الشواطيء الفرنسية ، وفي غارة بحرية هوجمت سفينتهم من سفينة قراصنة جزائريين وأخذته أسيرا مع أخيه ضمن " جماعة من الإسبانيين ، ولما وجد القراصنة معه الرسالتين ظنوا أنّه من علية القوم وأنّ له شأنا وغالوا في طلب الفدية ، وقد حمل **ثرفانتس** مع الأسرى إلى الجزائر ووضع تحت حراسة رجل من أصل يوناني اعتنق الإسلام " [٣] اسمه (دالي مامي) . وطلب منه كتابة رسائل إلى أهله كي يدفعوا الفدية ، " وعلى

---

(١) اسمه (رودريجو) مثل اسم أبيه ، وكان معه أسيرا في الجزائر ، وأفرج عنه - بعد دفع فدية - قبل ثرفانتس .

(٢) انظر : أحمد محمد الشنواني : كتب غيرت الفكر الإنساني ، سبق ذكره ، ص : ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) نفسه : ص ١٠٤ .

الرغم من إلحاحه على أنه فقير ، لم يصدقه أحد حتى انصاع لرغباتهم ، وتم تصنيفه ضمن الشخصيات المهمة التي يجب المحافظة عليها ويطلب لإطلاق سراحها فدية " . [١] وفيما بعد " وصف لنا الكاتب الإسباني الكبير **ثرفانتس** هذه الغارة البحرية المروعة في صور مثيرة شائقة " ، [٢] لأنه كان واحدا من ضحاياها ، " ولأن لثقافة العصر والحروب الدينية حضورها في لا وعيه وردود فعله " . [٣] وقد أزعجت هذه الغارات البحرية الحكومة الإسبانية " بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان هذا غريبا في الواقع ، إذ كانت إسبانيا يومئذ سيدة البحار، وكانت أساطيلها الضخمة تجوب مياه الأطلنطي حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التي كانت تقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القراصنة المغاربة ، في سفن صغيرة ، تدفعهم روح المغامرة والاستبسال " . [٤]

---

(١) واسيني الأعرج : من مقال (ثرفانتس والجزائر- رحلة البحث عن الرواية) ، الدوحة ، عدد يونيو ٢٠٠٨ ، ص ١٢٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ط القاهرة ، مكتبة الخانجي ، جـ ٧ سنة ٢٠٠٣ ، ص ٣٨٨ .

(٣) واسيني الأعرج : المقال السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) محمد عبد الله عنان : السابق ، ص ٣٨٩ .

مكث **ثرفانتس** في الجزائر أسـيرا خمس سنوات من سـنة ١٥٧٥ إلى سـنة ١٥٨٠م ، وفـي أثنائها حـاول الهرب مع رفاقه من الأسـر أربع مرات ورفض أن يهرب وحده ويتركهم ، وفي كل مرة كان يُقبض عليه ويعود للأسـر يدافع عن زملائه ويُنكر أي دور لهم فـي الهروب ، ويعترف بما فعل ، ويحمّل نفسـه مسئولية الفرار في شجاعة وقوة ونبل .

ذات مرة ، بعد فشـل إحدى محاولات هروبه ، قبض عليه رجال حسـن باشـا حـاكم أو (بـاى) الجزائر ، وكان سـيُعدم لولا إعجاب حسـن باشـا به أثناء المحاكمة ، وأبقاه أسيرا عنده في سـرايته بعد دفع الفدية التي طلبها (دالـي مامي) ، وطلب فدية مضاعفة لمن يريد افتداؤه من الأسـر .

وكان تسامح حسن باشا مع **ثرفانتس** كبيرا ، " ليس لأن **ثرفانتس** كان رهينة يمكن أن تجلب أموالا كثيرة ، ولكن لأن **ثرفانتس** نفسـه كـان شخصية استثنائية غيرتها السـجون والإقامة في الجزائر ، على الرغم من أن الحرية ظلت مقدسة لديه ، ومحاولات هروبه لم تكن إلا تأكيدات دائمة على هذه الرغبة ، إلا أن اختباره للبشر ولطفه وفرا له حظا كبيرا مع محيطيه ". (١)

---

(١) واسينى الأعرج : المقال السـابق ، ص ١٣٠ .

وفي سراية حسن باشا ، كان **ثرفانتس** يقضي ساعات لا حصر لها من الفراغ ، وقد استيقظت حواسه التي ازدادت حدة بعد أن زال عنه التوتر والقلق والإثارة التي صاحبت هروبه ثم القبض عليه ، كان مسموحا له بالتجول داخل السراية ... ولم يطلب منه عمل أي شيء ، نفس الحال كما كان في أسر (دالي مامي) . وهنا كان يسمح له بحرية الاختلاط بالحراس والأتباع " (١) ليس هذا فحسب ، بل " كان يجاب إلى كل ما يطلبه من الكتب والأوراق وأدوات الكتابة " . (٢)

ويعترف **ثرفانتس** بأن حسن باشا " لم يمسسه أبدا بأي أذى ، ولم يضربه ولا مرة ، ولم يأمر بضربه على الإطلاق ، ولا أسمعه كلاما نابيا ولا شتائم " .(٣) ونتيجة لهذه المعاملة الحسنة من حسن باشا **لثرفانتس** (الأسير) ، وُصف حسن باشا بأنه كان " ضعيفا أمام لطف **ثرفانتس** وحركته وهدوئه " .(٤)

---

(١) الدكتور غبريال وهبة : دون كيشوت بين الوهم والحقيقة ، سبق ذكره ، ص ٥٠ ، ٥١ .
(٢) نفسه : ص ٥١ .
(٣) واسيني الأعرج : المقال السابق ، ص ١٣٠ .
(٤) نفسه : ص ١٣١ .

في الجزائر ، نال **ثرفانتس** حظا عظيما من الثقافة العربية التي أثرت في حياته وإبداعاته ، لأنه كان من الأسرى الذين " يُسمح لهم بأن يتحركوا داخل المدينة المغلقة ، من ثمة عرف **ثرفانتس** حياة الناس الذين كان يجهلهم ، وتقرّب من عادات المدينة وتقاليدها ... كان ملاحظا دقيقا في حياته التي لم تكن فقط اعتقالا وعبودية ، ولكن كانت بها لحظات مليئة بالحياة . ولا يمكن فهم التحولات التي حصلت في حياة **ثرفانتس** دون التعرف على هذه التفاصيل الحية وعدم الاقتصار على المظالم والتوقف عند اللحظة الأولى التي اقتيد فيها **ثرفانتس** نحو الأنفاق والسجون . بل إن تعمقه في حياة القصور واقترابه من كبار مسئولي عصره جعلاه لا يغير فقط من مفاهيمه عن الآخرين ، ولكن جعله يتوغل عميقا في ثقافة البلاد ولغتها ونظمها الحياتية والسياسية " . (١)

وظل **ثرفانتس** في هذا الأسر يقرأ ويكتب ويحاكي الحراس والأتباع ولم يشوّه أسره إلا نشاز واحد ، هو قيمة الفدية الباهظة التي لا يملك أهله القدرة على جمعها . (٢) وتم دفع فدية له بعد أن قبل حسن باشا تخفيضها ، وأطلق

---

(١) نفسه : ص ١٢٨ .
(٢) انظر : الدكتور غبريال وهبة : السابق ، ص ٥١ .

سراحه وعاد إلى إسبانيا حرا • وكان عمره يومئذ ثلاثة وثلاثين عاما ، " وأبحر عائدا إلى وطنه الذي غاب عنه اثنا عشر عاما ، بدأت بسنتين أمضاهما في روما •• ثم خمس سنوات في الجيش ، تلتها خمس سنوات في الأسر " • (١)

ولم تمرّ سنوات الأسر على **ثرفانتس** في الجزائر عبثا ، لأنه ربح منها خبرات كثيرة ، ليس فقط من خلال محاكاته للحراس والأتباع الذين أسمعوه حكايات عربية ، قد تكون منها قصة **إبراهيم بن المهدي** ، ولكن منحته شيئا آخر عظيما هو " فرصة اللقاء مع مجتمع آخر لم يكن يعرفه إلا من خلال الكتابة الحاقدة التي تختزل كل شيء لمصلحة دينية كانت مُتسيّدة وقتها ، وغيَّرت نظرته رأسا على عقب • حسمت لديه الأفكار المسبقة التي لم تكن إلا لتقوّي الشقاق بين أناس لم يعرفوا بعضهم البعض إلا من خلال الحروب القاسية " •(٢)

وفي إسبانيا حاول **ثرفانتس** العمل في أكثر من مكان ، بعدما تبين له أنه لا يستطيع العيش بالأدب ، ولم يكن موفقا فيما تولاه من أعمال مما أدخله السجن أكثر من

---

(١) نفســه : ص ٥٣ •
(٢) واسيني الأعرج : المقال السابق : ص ١٢٨ •

مرة بسبب نقص في عهدته المالية ۰ [1] ثم كتب **ثرفانتس** قصته الشهيرة (دون كيخوته دى لا منتشا) التي وصفت بأنها أعظم عمل فني في تاريخ الأدب الإسباني ، وجعلت كاتبها من أعظم الكتاب ۰ وقد تُرجمت إلى أكثر من مائة لغة من لغات العالم ، منها اللغة العربية ۰

---

(١) انظر : هنري بيرلين : مقال (ميجويل ثرفانتس ـ ذكري مرور أربعمائة سنة على مولده) ، الكاتب المصري ، عدد أكتوبر ١٩٤٧ ، ص ٤٨ ، وانظر : أحمد محمد الشنواني : كتب غيرت الفكر الإنساني ، سبق ذكره ، ص ١٠٦ ۰

[٣]

نصوص القصـــة

تقديم :

نحن أمام ثلاثة نصوص ، النص الأول هو النص الإسباني لقصة " ربح الأصدقاء " للكاتب العظيم (**ثرفانتس**) ترجمة أستاذنا الدكتور الطاهر مكي .

والنص الثاني : هو النص العربي كما رآه الدكتور الطاهر مكي ، وهو نص موجود في ذاكرته منذ كان طفلا يتعلم مباديء القراءة والكتابة في (كتاب القرية) ، هذا النص هو قطعة إملاء أملاها عليه (سيدنا) شيخ الكتاب هو ومن معه من الأطفال ، وعند توثيقه للنص ، تساءل الدكتور الطاهر قائلا : " ولست أدري من أي مرجع عربي ، أو كتاب محدث نقل فقيه القرية القصة العربية " . (١)

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : في الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية ، سبق ذكره ، ص ٣١٨ .

أما النص الثالث : فهو قصة حقيقية وقعت أحداثها في سنة ٢٠٣هـ في عهد خلافة المأمون بن هارون الرشيد ، هي قصة **إبراهيم بن المهدي** (١٦٢ ـ ٢٢٤هـ) أخ هارون الرشيد مع ابن أخيه المأمون ، عندما ادعى **إبراهيم بن المهدي** الخلافة سنة ٢٠١هـ ، وظل على ادعائه سنتين تقريبا حتى طلبه المأمون ، فهرب وقبض عليه متخفيا ، وعرض على المأمون الذي عفا عنه ٠ والأحداث التي وقعت له أثناء هروبه وتخفيه هي موضوع الدراسة ٠

وأخبار **إبراهيم بن المهدي** جاءت في كثير من كتب التراث ، ومعظم هذه الكتب لم تذكر تفاصيل قصة هروب **إبراهيم بن المهدي** وتخفيه ثم القبض عليه ، وإنما جاءت بأخبار أخري عنه ، أو بتلميحات قليلة عن هروبه ، من هذه الكتب : كتاب **الأمالي** في لغة العرب لأبي علي القالي البغدادي ، [١] وكتاب : **الأوراق** ـ قسم أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم لأبي بكر الصولي ، [٢] وكتاب **الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني ، [٣]

---

(١) ط ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، جـ ١ سنة ١٩٧٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ٠
(٢) تحقيق : ج ٠ هيورث ٠ دن ، ط القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ٢٠٠٤ ، من ص ١٧ إلى ص ٤٩ ٠
(٣) ط ، القاهرة ، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ ١٠ ، سنة ١٩٩٢ ، من ص ٩٥ إلى ص ١٤٩ ٠

وكتاب : **وفيات الأعيان** وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس بن خلكان .[١] وكتاب **عيون الأخبار** لأبي محمد عبد الله بن قتيبة .[٢] وكتاب **الوزراء والكتاب** لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري .[٣]

أما تفاصيل قصة هروب **إبراهيم بن المهدي** والقبض عليه ، وهي - في رأيي النص العربي الذي تأثر به **ثرفانتس** عند كتابة قصته (ربح الأصدقاء) - قد جاءت كاملة في بعض كتب التراث ، مثل كتاب : **المستجاد من فعلات الأجواد** ، لأبي القاسم القاضي التنوخي[٤] ، وكتاب : **ثمرات الأوراق في المحاضرات** ، لتقي الدين بن حجة الحموي[٥] ، وكتاب : **إعلام الناس بما وقع للبرامكة** مع بني العباس ، لدياب الإتليدي[٦] ، وكتاب : **أخبار الأول فيمن تصرف في**

---

(١) تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط بيروب ، دار صادر ، جـ ١ بدون تاريخ من ص ٣٩ إلى ص ٤٢ .

(٢) ط القاهرة ، دار الكتب المصرية ، جـ ٨ سنة ١٩٣٠ ، ص ١٦٨ .

(٣) تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، ط القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ٢٠٠٤ ، ص ٣١٢ .

(٤) تحقيق الشيخ يوسف البستاني ، ط القاهرة ، دار العرب للبستاني ، ط أولي سنة ١٩٨٥ ، من ص ٥٩ إلى ص ٦٧ .

(٥) وهو مطبوع على هامش كتاب : من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم الراغب الأصفهاني ، جـ ١، ط القاهرة ، جمعية المعارف المصرية ، سنة ١٢٨٧ هـ ، من ص ٢٣٣ إلى ص ٢٤١ .

(٦) ط القاهرة ، مطبعة الشيخ شرف موسى ، سنة ١٣٠١ هـ ، من ص ١١٥ إلى ص ١١٨ .

مصر من أرباب الدول ، للإسـحاقي المنوفي [١] . والنص متشـابه في هذه الكتب ، و متطابق في معناه رغم وجود اختلاف قليل في بعض الألفاظ . وقد قامت الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر بإعادة طباعة الكتاب الأخير مصورا عام ١٩٩٨ ، وسآتي بنص القصة من هذا الكتاب .

---

(١) ط القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ١٩٩٨ ، ص ٧٦ ، ٧٧، ٧٨ .

النص الأول :

قصة (ربح الأصدقاء) لثرفانتس
ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي

حدث ذلك في الليلة الأولى التي دخلت فيها لشبونة، كنت أتجول في أحد شوارعها الرئيسية ، باحثا عن فندق أفضل من الذي نزلت فيه ، مارّا بمكان ضيق غير نظيف ، فاصطدمت مع برتغالي ملثم ، أزاحني عنه في شدة قوية ، حتى أنني استلقيت أرضا ، فأثار هذا الاعتداء غضبي ، فتركت مهندي يثأر لي : سللت حسامي ، وانتضى البرتغالي سيفه في شجاعة أنيقة وجرأة ، وكانت ليلة عمياء ، وقدر أكثر عمى ، وعلي هدى من حظي الأفضل وبدون أن أعرف إلى أين ، وجه القدر سيفي إلى عين خصمي ، فوقع على ظهره تاركا جسده على الأرض ، بينما ذهبت روحه إلى حيث يعلم الله • وبدأ لي الخوف مما صنعت فوجمت ، ورأيت نجاتي في الهروب ، أردت ذلك ، ولكني ما عرفت إلى أين ، إلا أن همسات الناس الذين بدوا ، وكأنهم على وشك الحضور وضعت في قدمي أجنحة ، وفي خطوات تائهة عدت إلى أول

الشـــارع ، باحثا عن مكان أختفي فيه ، أو ركن أنظف فيه سـيفي ، حتى إذا ما أصابتني العدالة ، لا تجدني مع شـواهد تشـير إلى جرمي ٠

وإذ أنـا أجـري دوخـان مـن الخـوف ، رأيـت نـارا فـي بيت كبير ، فألقيت بنفســي فيه دون أن أعرف لأي هدف ، وجدت بهوا منخفضا مفتوحا ، رائع التجميل ومددت خطوي فدخلت قاعـة أخـرى ، كانـت هـي أيضـا جميلـة الزخـرف ثـم قادني الضوء الذي كان يبدو في غرفة ثالثة إلـى حيث وجدت سـيدة مسـتلقية على فراش وثير ، فاعتدلت جالســة فـي قلق ، وســألتني من أنا ؟ وعمّ أبحث ؟ وإلـى أين أذهب ؟ وبمثل هذا الاحترام القليل أجبتها :

- سـيدتي : علـى هذه الأســئلة الكثيرة لا يمكننـي أن أجيبك بأكثر من القول : إنني رجل غريب ، ترك فيما أعتقد رجلا مقتولا في هذا الشــارع ، وهو أمر فيما أحســب أنـا ، يرجع إلى ســوء حظه وتجبره أكثر مما يرجع إلىّ ، فـأرجو بحق الله ، وبحقك أنت ، أن تنقذيني من صرامة العدالـة ، التـي تلاحقني فيما يبدو ٠

- أقشـتالي أنت ؟

- لا يا سيدتي ، أنا أجنبي ، ومن بعيد جدا عن أرض هذا الوطن ٠

- حتى ولو كنت قشتاليا ألف مرة ، فسأنقذك إذا استطعت : اصعد فوق هذا السرير ، وادخل تحت البطانية ، واجلس في تجويف تجده هناك ولا تتحرك ، فإذا جاءت العدالة احترمتني ، وصدّقت ما أقول لها ٠

صنعت كما أمرتني ، رفعت البطانية ، ووجدت تجويفا انحشرت فيه ، وكتمت أنفاسي ، ودعوت الله بأفضل ما استطعت ، وإذ أنا في هذا الكرب العظيم ، دخل خادم الدار وهو يقول فيما يشبه الصياح :

سيدتي : قتلوا سيدي (دون دوارتي) وهم يحملونه إلى هنا ، لقد أمضاه سيف فأصابه في العين اليمنى وشقها كلها ، ولا يعرف له قاتل ولا سبب الخصام ، حتى ولم يكد يسمع للسيوف صليل ، وإنما يقول غلام إنّه رأى رجلا دخل هذا البيت هاربا ٠

وأجابت السيدة قائلة : من غير شك لا بد أن يكون هو القاتل ، ولن يستطيع الإفلات ، واحسرتاه ! كم خشيت

أن أرى ابني يؤتى به ميتا ، فلم يكن ممكنا أن يرجى من سيره الغوي سوى الشر ! ٠

في هذه اللحظة ، أحضر الميت أربعة رجال يحملونه على أكتافهم ، فوضعوه على الأرض بين يدي الأم الحزينة ، التي أخذت تولول في صوت فاجع ٠٠٠ يا للثأر! كيف يدفع بنفسه إلى حتفه ، ولكن الوفاء بوعدي لا يسمح لي بأن أجيبك إلى مرادك ، ومع ذلك ، فوا ألماه ! كم ضايقتني ٠

* * *

تصوروا حال قلبي يا سادة ، وأنا أسمع صياح الأم المرزوءة ، لقد بدا لي أن وجود ولدها الميت قد وضع في يدها ألفا من طرائق الموت لتنتقم مني ، وكان من البيّن الواضح ألاّ مفر من أن تتصورني قاتل ولدها ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل حينئذ سوى السكوت ، والأمل في نفس اليأس ، وبخاصة عندما دخلت العدالة المخدع ، وسألت السيدة في أدب : جاء بنا إلى هنا قول غلام يزعم بأن قاتل هذا السيد ، دخل هذا البيت ، فتجرأنا على الدخول ٠

كنت خلال ذلك أسترق السمع ، وأصغي إلى أجوبة الأم الحزينة ، التي ردت ونفسها طافحة بشجاعة كريمة ، وشفقة مسيحية :

- إذا كان ذلك الرجل قد دخل هذا البيت ، فإنه على الأقل لم يأت إلى هذه القاعة ، فابحثوا عنه في غيرها ، ولو أنني أضرع إلى الله ألا تجدوه ، فما أسوأ أن يعالج الموت بالموت ، وبخاصة إذا لم يكن الضر مقصودا ، فانصرفت العدالة للبحث في بقية البيت ، وعادت إليّ الأرواح التي كانت قد فارقتني ثم أمرت السيدة بأن يرفعوا أمامها جثة ولدها ، وأن يكفنوه ، ثم أشارت بدفنه ، كما أمرت بأن يتركوها وحيدة ، لأنها ليست مستعدة لاستقبال الكثيرين الذين جاءوا ليقدموا لها التعازي والسلوان من الأقرباء والأصدقاء والمعارف ، وبعد ذلك دعت خادما لها ، كانت فيما يبدو أكثر من تثق فيها ، فهمست في أذنها ببعض الكلمات ثم ودعتها ، وأمرتها بأن تغلق الباب وراءها ، فصنعت ما أمرت ، بينما جلست السيدة على السرير ، ومست البطانية ، وفيما يبدو وضعت يدها فوق قلبي ، وهو يخفق في سرعة ، فدلّ ذلك على ما اعتراه من الخوف ، فلما رأت ذلك ، قالت لي في صوت خافت مكلوم : يا رجل كائنا من كنت ، قد رأيت أنك أزلت أنفاس صدري وأذهبت نور عيني ، وأخيرا الحياة التي كنت أرتكز عليها ،

ولكني رأيت أن ذلك حدث بدون قصدك ، فأريد أن ينتصر وعدي على انتقامي ، والوفاء بالعهد الذي قطعته لك ، بتحريرك عندما دخلت إلى هنا ، والآن عليك أن تصنع ما يلي : ضع يديك فوق وجهك حتى إذا غفلت ففتحت عيني لا تضطرني إلى أن أعرفك ، واخرج من هذا المخبأ واتبع خادما لي ستأتي إلى هنا ، وسوف تقودك إلى الشارع وتعطي لك مائة درهم من الذهب ، تيسيرا لأمرك ، وأنت لست معروفا هنا ، وما فيك من دليل ينم عليك ، واحتفظ برباطة جأشك ، لأن الإفراط في القلق يدل عادة على المجرم ! .

* * *

ثم جاءت الخادم فخرجت من وراء القماش مغطيا وجهي بيدي ، وانحنيت لها شاكرا ، وقبلت قدميها عدة مرات ، ثم قفوت أثر الخادم التي أخذتني من ذراعي توا صامتة ، ومن باب خلفي للبستان ، وتحت جنح أستار الظلام ، أفضت بي إلى الشارع ، ولما وجدت نفسي هناك ، كان أول همي أن أغسل سيفي ، وفي خطى مطمئنة انتهيت عفوا إلى شارع رئيسي ، فاهتديت إلى فندقي ، واقتحمته كأن لم يحدث لي خير ولا شر، ثم قص لي صاحب الفندق مصيبة السيد القتيل من قريب ، وبالغ في تمجيد أسرته ، وفي إطراء طباعه الجريئة،

التي ربما تكون قد أوجدت له عدوا خفيا قاده إلى مثل هـذه النهاية ٠

قضيت تلك الليلة في حمد الله على آلائه ، وفي إطراء تلك السيدة الشجاعة ، العجيبة الأخلاق ، الصلدة الصبر ، المنقطعة النظير ، المسماة " دنيا يعقوبة " ، ثم غدوت إلى النهر مبكرا ، فوجدت فيه زورقا حافلا بأناس ، يريدون أن ينتقلوا إلى سفينة كبيرة راسية في " سان جان " ، على وشك أن ترحل نحو جزائر الهند الشرقية ، فعدت إلى فندقي ، وبعت بغلتي لصاحبها ، وأغلقت قبضة يدي على كل ما حدث ، وعدت إلى النهر والزورق ، وإذا بي في اليوم التالي خارج المرسى ، على ظهر السفينة الكبيرة أشرعتها مرسلة للريح ، سالكة طريقها نحو ما كانت تريد ٠٠!

النص الثاني :

النص العربي
كما رآه الدكتور الطاهر أحمد مكي

يحكى أنه في إبان فتح الأندلس ، كان شيخ عربي يتفيأ ظلال أشجار البرتقال في بستان له ، حينما اقتحم عليه داره شاب هلع يصيح : عائذ بك من مطاردة ، مستجير بك من ثأر ، فأمنه الشيخ على نفسه ، واستمع لقصته :

قال الشاب : إنه التقى في طرف المدينة مع شاب آخر ، وحدثت بينهما ملاحاة ، فما كان منه إلا أن استل سيفه وقضى عليه ، ثم تسلل هاربا قبل أن تفتك به الجموع التي أقبلت لترى الحادث ! .

فصحبه الشيخ إلى حجرة آمنة ، وهدّأ من روعه ، وأمنه على حياته وطلب إليه أن يبقى فيها ، حتى إذا ما أقبل الليل استطاع أن يغادر المدينة تحت جنح الظلام آمنا !.

ولم يمض من الزمن غير أقله ، حتى أقبل أربعة رجال يحملون بين أيديهم شـابا قتيلا مضرجا في دمائه ، كان ابن الشيخ الهرم صاحب البستان ، وقال حاملوه إن غريبا عن المدينة ، التحم معه ، وأنهى حياته بسيفه ، فلم يخالج الأب المكلوم شك ، في أن المستجير به ، هو الذي أودى بحياة وحيده ، ولكنه كظم غيظه ، واستجمع صبره ، وأهّل ابنه للدفن ، وتلقي عزاء الأقارب وسلوان الأصدقاء ، دون أن يفقد حلمه أو يضعف إيمانه ، فلما جنّ الليل تقدم إلى الشاب في ثقة المطمئن إلى قضاء الله ، الراضي بقدره ، وقال له : يا هذا ! ٠٠لقد مزقت قلبي ، وفتتت كبدي ، وأوهنت مني العزم وأضعفت القوى ، فقتلت وحيدي ، تكأتي في شيخوختي ، وسلوتي في وحدتي ، وامتداد حياتي إذا ما فجأني الموت ، ولكني لن أنكث وعدا قطعته ، ولن أتراجع في أمان منحته ، وحسبك - عافاك الله ! - أن تفارق داري ، وأن تختفي عن ناظري ، وأن تغتنم الظلام ، لكي تفارق المدينة آمنا ، وإليك هذه الدراهم ، تعينك في رحلتك ، وبها تقيم أود حياتك زمنا ، إذا ما افتقدت العمل أو القرى أو المضيف !٠

النص الثالث :

النص التراثي
قصة هروب إبراهيم بن المهدي

إن **إبراهيم بن المهدي** وهو أخ هارون الرشيد لما آل الأمر ابن أخيه المأمون ، لم يبايعه ، وذهب إلى الري وأقام بها ، وادعى الخلافة لنفسه ، وأقام مالكها سنة واحدة وأحد عشر شهرا واثني عشر يوما ، وابن أخيه المأمون يتوقع منه العود إلى الطاعة والانتظام في سلكه • فلما أيس من عوده إلى الطاعة ركب بخيله ورجله ودخل الري في طلب عمه ، فما وسعه إلا أنه اختفى خوفا على دمه • فجعل المأمون لمن دلَّ عليه مائة ألف دينار •

وقال **إبراهيم** : فخفتُ على نفسي ، وتحيرتُ في أمري ، فخرجتُ من داري وقت الظهيرة وأنا لا أدري أين أتوجه ، فجئتُ إلى **بغداد** ، فدخلتُ شارعا غير نافذ ، فرأيت في صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب داره ، فتقدمتُ إليه وقلت له : هل عندك موضع أقيم فيه ساعة • فقال : نعم ، وفتح لي الباب فدخلتُ إلى بيت نظيف ، ثم إنه بعد أن أدخلني أغلق الباب ومضى

فتوهمتُ أنه سمع الجعالة فيّ وأنه خرج يدل عليَّ ، فبقيت كالحب على النار ، وأنا متفكر في أمري • فبينما أنا كذلك إذ أقبل ومعه حمال عليه كل ما يحتاج إليه ثم التفت إليَّ وقال : جعلني الله فداك ، أنا رجل **حجام** وأنا أعلم أنك متقرّف منّي ، فشأنك بما لم تقع عليه يدي •

قال **إبراهيم** وكان لي حاجة إلى الطعام ، فطبخت لنفسي قدرا ، ما أذكر أني أكلت مثلها • فلما قضيت أمري من الطعام ، قال لي : ليس من قدري أن أحدثك ، فإن رأيت أن تشرّف عبدك فلك علو الرأي •

قال **إبراهيم** : فقلتُ - وأنا أظن أنه لم يعرفني - ومن أين لك أني أحسن المسامرة ، فقال : يا سبحان الله ، مولانا أشهر من ذلك ، ألستَ **إبراهيم بن المهدي** الذي جعل المأمون لمن دلّ عليك مائة ألف دينار؟ • قال **إبراهيم** : فلما قال لي ذلك عظم في عيني ، وتثبتت مروءته عندي ، فوافقتُه على بغيته منّي ، ومرَّ بخاطري فراق أهلي وولدي فقلت :

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله وأعزّه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا والله رب العالمين قدير

قال : فلما سمع ذلك منّي ، قال : يا سيدي أتأذن لي أن أقول ما سنح بخاطري ، فقلت له : هات ، فقال :

شـكونا إلى أحبابنا طول ليلـنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النّوم يغشـي عيونهم سريعا ولا يغشي لنا النّوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضرُّ بذي الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنـهم كانوا يلاقون مثـل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

قال إبراهيم : والله لقد أحسست بالبيت قد سـار، وذهب عنّي كل ما كان من الجزع ، ثم قال بعد أن سألته :

تعيرنـا أنّـا قليــل عديدنـا فقلت لها إن الكرام قليـل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيـز وجار الأكثرين ذليل
وإنّا لقوم لا نرى الموت سبة إذا ما رأته عامر وسـلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهـه آجالهـم فتطـول

قال إبراهيم - ما معنـاه - : قد داخلني من الفكرة في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه ، ثم أخرجت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير لها قيمة فرميت بها إليه ، وقلت : الله أستودعك ، فإنّي ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ، ولك عندي المن المزيد أن أمنت من خوفي •

قال إبراهيم : فأعاد الخريطة عليَّ وقال : يا سيدي ، إن الصعاليك منّا لا قدر لهم عندكم ، وآخذ على ما وهبنيه الزمان

من قربك وحلولك عندي ثمنا ، والله لإن راجعتني في ذلك قتلتُ نفسي .

قال إبراهيم : فأعدتُ الخريطة إلى كمي ، وقد أثقلني حملها ، فلما انتهيت إلى باب داره ، قال لي : يا سيدي إن هذا المكان أخفى لك من غيره ، وليس في مؤنتك ثقل ، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك . فرجعتُ وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل ، فأقمتُ عنده أياما على تلك الحالة ، فضجرت من الإقامة .

وتزييتُ بزي النساء بالخف والنقاب ، فخرجتُ ، فلما صرتُ في الطريق داخلني من الخوف أمرٌ شديدٌ ، وجئتُ لأعبرَ الجسرَ ، فإذا أنا بموضع مرشوش بماء ، فبصر بي جندي ممن كان يخدمني ، فعرفني وقال : هذه حاجة المأمون ، فتعلق بي ، فدفعتُه وفرسه ، فرميتهما في ذلك الزلق ، وصار عبرة ، وتبادرت إليه الناس ، فاجتهدتُ في المشي حتى قطعت الجسر ، فدخلتُ شارعا فوجدتُ باب دار وامرأة في دهليز . فقلتُ : يا سيدة النساء احقني دمي ، فإني رجل خائف ، فقالت لا بأس عليك ، وأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاما ، وقالت : ليهدأ روعك .

فبينما هي كذلك وإذ بالباب قد دقَّ دقا عنيفا ، فخرجتْ وفتحتْ الباب ، وإذ بصاحبي الذي أوقعتُه على الجسر ، وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس ، فقالتْ : ياهذا ، ما دهاك ؟ فقال : ظفرتُ بالغنى وانفلت مني ، وأخبرها بالحال ، فأخرجتْ خرقة وعصبتْ بها رأسه ، وفرشتْ له ونام عليلا • وطلعتْ إليَّ وقالتْ : أظنك صاحب القضية ، فقلتُ : نعم ، فقالت : لا بأس عليك ، ثم جددت لي الكرامة ، فأقمتُ عندها ثلاثة أيام ، ثم قالتْ : إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينمّ عليك ، فانج بنفسك ، فسألتها المهلة إلى الليل • فلما دخل الليل لبستُ زيَّ النساء وخرجت من عندها •

فأتيتُ بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدتْ الله على سلامتي ، وخرجتْ كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة ، فما شعرتُ إلا بإبراهيم الموصلي في خيله ورجله والموالاة معه حتى سلمتني إليه • وحُملتُ بالزيِّ الذي أنا فيه للمأمون ، فجلس مجلسا عاما وأدخلني عليه ، فلما دخلتُ عليه سلمتُ عليه بالخلافة • فقال : لا سلمك الله ولا حياك ، فقلتُ : على رسلك يا أمير المؤمنين ، إن ولي الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو ، وكما

جعل ذنبي فوق كل ذنب ، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم قلت :

ذنبي إليـك عظـيم وأنت أعظم منـــه

فخذ بحقـــك أو لا واصفح بحلمك عنه

إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنـــه

قال إبراهيم : فرفع المأمون رأســه فبادرته وقلت :

أتيت ذنبا عظيمــا وأنت للعفــو أهـل

فإن عفــوتَ فمَـــنٌ وإن جزيـتَ فعدل

وفي المعنى أيضا قول الشريف علي العقيلي :

يا طاعتي بعتاب كاد ينقذنـي لو لم أكنِ لابسا درعا من الأمـل

اخلع عليّ جديدا من نداك فقد رقعت بالعذر ما خرقت بالزلل

وفي المعنى أيضا : قال بعض المحدثين :

فإن عاقبتني فبسـوء فعلي وما ظلمت عقوبة مسـتقيد

وإن تغفر فإحســـان جديد دعوت به إلى شكر جديد

قال : فرقّ المأمون ، واسـتروحتُ رائحة الرحمة منه ثم أقبل على ابن عمه وأخيه أبي إســحاق ، وعلي جميع من حضر من خاصته ، وقال : ما ترون في أمره ، فكلّ أشـــار بقتلي ، إلا أنهـم اختلفوا في القتلة كيف هي ؟ ، فقال المـأمون : لأحمد بن خالد : ما تقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن قتلتـه وجدنا مثلك قتلَ مثله ، وإن عفوتَ عنه فما وجدنا مثلك عفا عن مثلـه ، فنكّس المأمون رأســه وأنشــد متمثلا :

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

وفي المعنى :

إن الكريم إذا تمكن من أذى جاءته أخلاق الكرام فأقلعا

وترى اللئيم إذا تمكن من أذى يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

قال إبراهيم : فكشفتُ المقنعة عن رأسي وكبرتُ تكبيرة عظيمة ، وقلت : عفا والله أمير المؤمنين • قال : لا بأس عليك يا عم • فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر عفوك ، أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول :

إن الذي خلق المكارم حازها في صلب آدم للإمام السابع

ملئت قلوب الناس منك مهابة وتظل تكلؤهم بقلب خاشع

ما إن عصيتك والغواة تمدني أسبابها إلا بنية طائع

وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع إليك بشافع

ورحمت أطفالا كأفراخ القطا وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب عليك اليوم ، وقد عفوتُ عنك ، ورددتُ عليك مالك وضياعك ، فقلت :

رددت مالي ولم تبخل عليَّ به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي

فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدمي

ما كان ذاك سوى عارية رجعت إليك ، لو لم تعره كنت لم تلم

فإن جحدت ما أوليت من نعم إني إلى اللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام درا ، هذا أحسنه • وخلع عليه ، وقال : ياعم ، إن أبا إسحاق والعباس قد أشارا بقتلك • فقلتُ : إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين ، ولكن أتيتَ بما أنت أهله ، ودفعت ما خفت بما رجوت ، فقال المأمون : حقدوا منك بحياة عذرك ، وقد عفوتُ عنك ولم أجرّعك مرارة الشامتين • ثم إن المأمون سجد طويلا ، ثم رفع رأسه وقال : ياعم ، أتدري لماذا سجدت ، فقلتُ : شكر الله الذي ظفرك بعدو دولتك • فقال : ما أردت ذلك ، ولكن شكر الله الذي ألهمني العفو عنك •

قال إبراهيم : فشرحتُ له صورة أمري ، وما جرى لي مع **الحجام** و**الجندي** و**المرأة** و**الموالاة** التي نمَّت عليَّ ، فأمر المأمون بإحضار **الموالاة** وهي في دارها تنتظر الجائزة ، فقال لها : ما حملك علي ما فعلت مع سيدك ، فقالت : الرغبة في المال ، فقال لها : هل لك ولد أو زوج ، فقالت : لا ، فأمر بضربها مائتي سوط وخلّد سجنها ، ثم قال : احضروا **الجندي وامرأته والحجام** ، فأحضروا ، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل ، فقال : الرغبة في المال • فقال المأمون : يجب أن تكون **حجاما** ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان **حجّام** ليعلمه الحجامة ، وأكرم **زوجة الجندي** وأدخلها القصر ،

وقال : هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات • ثم قال **للحجام** : قد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة في إكرامك ، وسلم إليه دار **الجندي** بما فيها ، وخلع عليه وأمر له برزق **الجندي** وزيادة ألف دينار •

[٤]

مقارنـــــات

أ - بين قصة ثرفانتس وقصة إبراهيم بن المهدي

في البداية لا بد أن أشير إلى أن هذه المقارنة ليست بين نصين إبداعيين ، ولكن بين قصة فنية وأخرى حقيقية ، بين قصة (ربح الأصدقاء) لثرفانتس ، وقصة هروب وتخفي **إبراهيم بن المهدي** في عهد الخليفة المأمون • وقد سبق القول أن **ثرفانتس** سمع قصصا من الحراس وغيرهم أثناء أسْره في الجزائر ، وعلى الأرجح أنه سمع هذه القصة منهم •

هناك أوجه شبه بين قصة (ربح الأصدقاء) للكاتب الإسباني **ثرفانتس** وبين قصة هروب (**إبراهيم بن المهدي**) والقبض عليه والعفو عنه •

تعتمد القصة الإسبانية على الحكي بضمير (أنا) فالبطل فيها يتحدث ويقول مثلا : (دخلتُ ، كنتُ ، اصطدمتُ ، استلقيتُ ••• إلخ) ، و**إبراهيم بن المهدي** يتحدث عن نفسه أيضا (خفتُ ، تحيرتُ ، خرجتُ ، لا أدري ، دخلتُ ••• إلخ) •

وقعت أحداث القصة الإسبانية في لشبونة بينما وقعت أحداث قصة **إبراهيم بن المهدي** في بغداد .

وقع بطل القصة الإسبانية في مأزق ، فرَّ على أثره هاربا يبحث عن مكان يختفي فيه . المأزق : هو اصطدامه مع برتغالي ملثم والتحامه معه بالسيف مدافعا عن نفسه ، ثم قتله أثناء هذا الالتحام ، ثم هروبه . ويصف **ثرفانتس** هذا المأزق وهو قتل البرتغالي قائلا : " سللتُ حسامي ، وانتضى البرتغالي سيفه في شجاعة أنيقة وجرأة ، وكانت ليلة عمياء ، وقدر أكثر عمى ، وعلى هدى من حظي الأفضل وبدون أن أعرف إلى أين ، وجه القدر طرف سيفي إلى عين خصمي ، فوقع على ظهره تاركا جسده على الأرض ، بينما ذهبت روحه إلى حيث يعلم الله . وبدا لي الخوف مما صنعت فوجمتُ ، ورأيتُ نجاتي في الهروب " . (١)

ووقع **إبراهيم بن المهدي** في مأزق يشبه ما وقع فيه بطل قصة **ثرفانتس** وذلك بعد ادعائه الخلافة مدة سنتين تقريبا في (الري) ، ثم جاء المأمون ليقبض عليه وجعل لمن دلَّ عليه مائة ألف دينار ، فهرب **إبراهيم بن المهدي** متخفيا ومكث عدة أيام عند (حجّام) ثم أراد أن ينتقل إلى مكان آخر . ويصف **إبراهيم بن المهدي** هروبه قائلا : " خرجتُ ، فلما صرتُ في

---

(١) الدكتور الطاهر مكي : في الأدب المقارن ـ دراسات نظرية وتطبيقية ، سبق ذكره ، ص ٣٢١ .

الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسـر ، فإذا أنا بموضع مرشوش بماء ، فبصر بي جندي ممن كان يخدمني فعرفني وقال : هذه حاجة المأمون ، فتعلق بي فدفعتُه وفرسه ، فرميتهما في ذلك الزلق ، وصار عبرة ، وتبادرت إليه الناس ، فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر " . (١)

شـعر بطل قصة **ثرفانتس** بأن العدالة تلاحقه فجرى مسرعا ودخل بيتا ، ثم دخل غرفة من غرف هذا البيت ، وجد فيها سيدة مستلقية على فراش ، هي صاحبة البيت ، اعتدلت جالسة وسألته : من أنتَ ؟ وعمَّ تبحث ؟ وإلى أين تذهب ؟ ، فحكى لها قصته . ووافقت على إيوائه وطلبت منه أن يدخل في مكان آمن في البيت حتى لا يقبض عليه ، وقالت له : " سأنقذك إذا استطعت ، اصعد فوق هذا السرير ، وادخل تحت البطانية ، واجلس في تجويف تجده هناك ولا تتحرك فإذا جاءت العدالة احترمتني ، وصدقت ما أقول لها " . (٢)

ودخل **إبراهيم بن المهدي** أيضا بيت سيدة وافقت على إيوائه في غرفة من غرف البيت ، فبعد أن ألقى **إبراهيم بن المهدي** بالجندي - الذي أراد أن يمسك به - وفرسه في الزلق ، يقول : " اجتهدتُ في المشي حتى قطعت الجسر ، فدخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة في دهليز . فقلت يا سيدة النساء : احقني دمي ،

---

(١) الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصر في مصر من أرباب الدول ، سبق ذكره ، ص ٧٧ .

(٢) الدكتور الطاهر مكي : السابق ، ص ٣٢٢ .

فإني رجل خائف ، فقالت : لا بأس عليك ، وأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاما ، وقالت : ليهدأ روعك " . [١]

حدثت مفاجأة لبطل قصة **ثرفانتس** هي نفسها التي حدثت **لإبراهيم بن المهدي** ، فإن المقتول الذي قتله بطل قصة **ثرفانتس** هو ابن السيدة التي آوته في منزلها ، والجندي الذي أزاحه **إبراهيم بن المهدي** في الزلق حتى وقع جريحا هو زوج السيدة التي آوته في بيتها . يحكي بطل قصة **ثرفانتس** قائلا : " وإذ أنا في هذا الكرب العظيم ، دخل خادم الدار وهو يقول فيما يشبه الصياح : سيدتي : قتلوا سيدي (دون دوارتي) وهم يحملونه إلى هنا ، لقد أمضاه سيف فأصابه في العين اليمنى وشقها كلها ، ولا يُعرف له قاتل ولا سبب الخصام ، حتى ولم يكد يسمع للسيوف صليل ، وإنما يقول غلام إنه رأى رجلا دخل هذا البيت هاربا " . [٢] ويصف **إبراهيم بن المهدي** حاله بعد أن هدّأت روعه تلك السيدة ، وبعد مضي وقت قليل ،" وإذ بالباب قد دقّ دقا عنيفا ، فخرجتْ وفتحتْ الباب ، وإذ بصاحبي الذي أوقعتُه على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس ، فقالت : يا هذا ، ما دهاك ؟ ، فقال : ظفرتُ بالغنى (أي بمكافأة المأمون) وانفلت مني ، وأخبرها بالحال " . [٣]

---

(١) الإسحاقي المنوفي : السابق ، ص ٧٧ .
(٢) الدكتور الطاهر مكي : السابق ، ص ٣٢٣ .
(٣) الإسحاقي المنوفي : السابق ، ص ٧٧ .

لم تفصح سيدة قصة **ثرفانتس** للعدالة عن حقيقة مكان قاتل ابنها رغم دخول رجال العدالة غرفتها التي خبَّأته فيها ، وعندما سألوها عنه أجابت : " إذا كان ذلك الرجل قد دخل هذا البيت ، فإنه على الأقل لم يأت إلى هذه القاعة ، فابحثوا عنه في غيرها ... فانصرفت العدالة للبحث عنه في بقية البيت " . (١)

وفي قصة **إبراهيم بن المهدي** ، لم تفصح زوجة الجندي لزوجها الجريح عن الغرفة التي خبأت فيها **إبراهيم ابن المهدي** ، وبعد أن نام الزوج الجريح عليلا ، ذهبت إلى مخبأ **إبراهيم بن المهدي** في إحدى غرف البيت وطلبت منه أن ينجو بنفسه لأنها خائفة عليه من زوجها الذي أراد تسليمه للمأمون الذي بدوره سيحاكمه وقد يأمر بقتله . (٢)

وكانت صفة السيدتين واحدة ، هي **النبل** ، وكان رد فعلهما واحدا هو **الوفاء بالعهد** الذي قُطع بإيواء الجاني المستجير في البيت وعدم الإضرار به وإطلاقه معافى من البيت ، والرحمة به ومساعدته في الهروب من المكان .

وبعد أن علمت سيدة قصة **ثرفانتس** أن القتيل ابنها وأن القاتل في بيتها ، جاءت العدالة تطلبه ولم ترشدهم إليه ، وبعد

---

(١) الدكتور الطاهر مكي : السابق ، ص ٣٢٤ .
(٢) انظر : الإسحاقي المنوفي : السابق ، ص ٧٧ .

أن أمرت السيدة بتكفين ودفن ابنها ، طلبت أن يتركوها وحيدة، ودعت خادما لها ، وقالت لقاتل ابنها : " أريد أن ينتصر وعدي على انتقامي ، والوفاء بالعهد الذي قطعته لك ، بتحريرك عندما دخلت إلى هنا والآن عليك أن تصنع ما يلي : ضع يديك فوق وجهك ، حتى إذا غفلت ففتحت عيني لا تضطرني إلى أن أعرفك ، واخرج من هذا المخبأ واتبع خادما لي ستأتي إلى هنا ، وسوف تقودك إلى الشارع وتعطي لك مائة درهم من الذهب ، تيسيرا لأمرك ، وأنت لست معروفا هنا ، وما فيك من دليل ينم عليك ، واحتفظ برباطة جأشك ، لأن الإفراط في القلق يدل عادة على المجرم " . [١]

وفي قصة **إبراهيم بن المهدي** ، عندما دخل الجندي على زوجته جريحا ، " أخرجتْ خرقة وعصبتْ بها رأسه ، وفرشتْ له ونام عليلا . وطلعتْ إليَّ (أي إلى **إبراهيم بن المهدي**) وقالت : أظنك صاحب القضية ، فقلت : نعم ، فقالت : لا بأس عليك ، ثم جددت لي الكرامة ، فأقمت عندها ثلاثة أيام ، ثم قالت : إني خائفة عليك من هذا الرجل (أي من زوجها) لئلا يطلع عليك فينم عليك فانج بنفسك : ، فسألتها المهلة إلى الليل ، ففعلتْ ، فلما دخل الليل ، لبستُ زيّ النساء وخرجتُ من عندها " . [٢]

---

(١) الدكتور الطاهر مكي : السابق ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .
(٢) الإسحاقي المنوفي : السابق ، ص ٧٧ .

ب - بين الدكتور الطاهر مكي وثرفانتس وإبراهيم بن المهدي

يصف أستاذنا الدكتور الطاهر مكي القصة العربية (قطعة الإملاء) بأنها ليست كاملة ، " وإنما بقايا شاحبة لذكريات بعيدة ، لصقت في ذاكرتي منذ الطفولة ، وقد محت أحداث الزمن منها كثيرا ، وبقي منها القليل ، ولكني أكاد أزعم لنفسي وأنا مطمئن ، أن أغلب الجمل التي سأوردها ، هي مما جاء في نص القصة العربية بلا تحوير ، فقد كان لها إذ ذاك في حنايا عقلي رنين إعجاب جعلني أحفظها عن ظهر قلب " . (١)

وأغلب الظن أن فقيه القرية قرأ قصة **إبراهيم بن المهدي** أو سمعها ، ثم استلهمها وصاغ منها قصة شيقة طريفة تصلح للتمارين الإملائية للأطفال في (الكتاب) ، وكثير من هؤلاء الفقهاء لديهم القدرة على الابتكار في هذه التمارين الإملائية . وقد تكون الأحداث الأخرى من قصة (**إبراهيم بن المهدي**) التي لم يتذكرها أستاذنا الدكتور الطاهر مكي ولم ترد بالنص ، ما يقرّب بين قصة فقيه القرية وقصة **إبراهيم ابن المهدي** .

---

(١) الدكتور الطاهر مكي : السابق ، ص ٣١٩ .

يصف الدكتور الطاهر مكي ترجمته لقصة **ثرفانتس** بأنها " ترجمة أمينة دقيقة ، لا تصرف فيها ، لأن كثيرا من جملها هي تعابير عربية أصيلة " ، [١] ويقول أيضا : " إنها تحت يدي من قد تواتيهم الفرصة ، ليقارنوها مع النص العربي الأصيل، ويدرسوا ما بين النصين من أوجه الاتفاق أو الاختلاف ومبعثه ومراميه " .[٢] وفي رأيي أن النص العربي الأصيل هو قصة : **إبراهيم بن المهدي** .

وعن المصدر العربي الذي استلهم منه **ثرفانتس** قصته (ربح الأصدقاء) يقول الدكتور الطاهر مكي : " لا أدري إذا كان **ثرفانتس** قد التقط القصة العربية - وليس ثمة شك في أنه التقطها - من أفواه عامة الإسبان ، وكانت أقاصيص الفروسية العربية وحكاياتها ملء وجدانهم وهو ما أميل إليه ، أم أنه التقطها من العرب إبان إقامته في الجزائر ، وقد عاش فيها زمنا " . [٣]

وأغلب الظن أن **ثرفانتس** قد سمع قصة **إبراهيم بن المهدي** وهو أسير في الجزائر ، فلم يكن أسيرا مكبلا بالقيود ولم يكن سجينا في حجرة مقفلة ، بل كان أسيرا عبدا يُعدُّ لأن يُفتدي أو يُباع ، وكانت له حرية اقتناء الكتب والأوراق وأدوات

---

(١) نفسه : ص ٣١٨ .
(٢) نفسه : ص ٣١٨ .
(٣) نفسه : ص ٣١٨ .

الكتابة وكان يختلط بالحراس والأتباع يحدثهم ويحدثونه .[١]
ومن الجائز أن يكونوا قد حكوا له قصصا منها قصة **إبراهيم ابن المهدي** ، فاستلهمها وصاغها فيما بعد قصة فنية متماسكة.

يلاحظ أن أم **ثرفانتس** (دنيا ليونور) ، امرأة قوية عنيفة ورحيمة في الوقت نفسه ، وذلك من طريقة حياتها ومن معاملتها لابنها **ثرفانتس** من قوة وشدة عندما تظهر بمظهر النبلاء ومن معاملتها له برحمة وشفقة وهي في مطبخ البيت تعدُّ الطعام .[٢]

يلاحظ أن اسم (دنيا) بالإسبانية معناه (سيدة) وهو لا يُترجم ،[٣] وقد أعطى **ثرفانتس** اسم (دنيا يعقوبة) لشخصية أم القتيل في قصته (ربح الأصدقاء) ، فهي امرأة قوية ورحيمة أيضا ، استطاعت بقوتها أن تمسك بزمام نفسها وتتحمل موت ابنها ، وتغفر للغريب القاتل وتساعده لأنه غير مذنب ولم يقصد القتل .

---

(١) انظر : الدكتور غبريال وهبه : دون كيشوت بين الوهم والحقيقة ، ص ٥١ .
(٢) انظر : السابق ، ص ٢٥ .
(٣) نفسه : ص ٢٤ .

خاتمة

يؤكد هذا البحث على تأثر الأديب الإسباني ميوجيل **ثرفانتس** (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) بالأدب العربي •

كتب **ثرفانتس** قصة اسمها (ربح الصدقاء) ، قرأها أستاذنا الدكتور الطاهر مكي ، وعند قراءته لها أحس للوهلة الأولى بأنها ليست غريبة عليه ، وأنها تشبه قطعة إملاء أملاها عليه (سيدنا) في كتاب القرية عندما طفلا ، فترجمها إلى العربية ، وحاول أن يتذكر النص العربي الأصيل للقصة ، فلم يتذكره كاملا ، ومع ذلك فقد روى خطوطها الرئيسية كاملة • إذن نحن أمام نصين ، أولهما : قصة (ربح الأصدقاء) **لثرفانتس** مترجمة إلى اللغة العربية ، والآخر: نص عربي تأثر به **ثرفانتس** ، وهو نص مجهول المؤلف ومجهول المصدر • وطلب أستاذنا الدكتور الطاهر مكي من تواتيهم فرصة العثور على النص العربي الأصيل مقارنته بالقصة الإسبانية •

وأثناء قراءتي في بعض كتب التراث العربي وقعت علي قصة حقيقية حدثت في التاريخ العربي الإسلامي ، هي قصة هروب وتخفي **إبراهيم بن المهدي** أخ (هارون الرشيد) وعم الخليفة (المأمون) ، وقد هرب لأنه ادعى الخلافة ، وطلبه (المأمون) ، وتم القبض عليه متخفيا •

أثناء اختفاء **إبراهيم بن المهدي** تعرض لأحداث تشبه أحداث قصة (ربح الأصدقاء) **لثرفانتس** شبها كبيرا ، مما يؤكد استلهام **ثرفانتس** للنص العربي ٠

سمع **ثرفانتس** قصة **إبراهيم بن المهدي** عندما كان أسيرا في الجزائر من الحراس أو من أتباع حسن باشا حاكم الجزائر، فالتصقت في ذاكرته واستقرت في وجدانه ، ثم صاغها قصة فنية بعد عودته إلي بلده إسبانيا ، وظهور إبداعاته الفنية في القصة والرواية ٠

وهذه الدراسة تتفق مع المفهوم الفرنسي للأدب المقارن الذي يشترط وجود علاقة تأثر وتأثير بين الأدبين ٠ وهنا ثبتت العلاقة التاريخية لتأثر **ثرفانتس** بالتراث العربي ٠

وليس غريبا أن يكون هذا الأصل العربي هو مصدر الإلهام لقصة (ربح الأصدقاء) ، لأن التراث العربي كان من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نهوض وازدهار الأدب الإسباني ٠

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- الإتليدي : المعروف بدياب محمد: إعلام الناس بما وقع للبرامكة ط القاهرة ، مطبعة الشيخ شرف موسى ، سنة ١٣٠١ هـ .

- الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ط القاهرة ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، سنة ١٩٨٩ .

- التنوخي : أبو القاسم القاضي التنوخي : المستجاد من فعلات الأجواد ، تحقيق الشيخ يوسف البستاني ، ط القاهرة ، دار العرب للبستاني ، ط أولى سنة ١٩٨٥ .

- الحموي : تقي الدين أبو بكر بن علي ، المعروف بابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق في المحاضرات ، مطبوع على هامش كتاب : من محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم الأصبهاني ، جـ ١ ، ط القاهرة ، جمعية المعارف المصرية ، سنة ١٢٨٧ هـ .

- الطاهر أحمد مكي : الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية ،
ط القاهرة ، دار المعارف ، ط أولى سنة ١٩٨٨ .

ثانيا : المراجع :

- أحمد محمد الشنواني : كتب غيرت الفكر الإنساني ، الألف كتاب
الثاني ، ط القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
جـ ٧ ، سنة ١٩٩٥ .

- الطاهر أحمد مكي : الأدب المقارن - أصوله وتطوره ومناهجه ،
ط القاهرة ، دار المعارف ، ط أولى سنة ١٩٨٨ .

- مقال (أن يكون الحمار دكتورا - مشكلة) ، حكاية
رمزية ، الدوحة ، عدد أغسطس ١٩٨١ .

- مقال (رحلتي في الحياة بين كتاب القريـة
ودواوين الشعراء) ، الهلال ، عدد يوليو ١٩٩١ .

- صامويل بنتام : (مقدمة) دون كيخوته لثرفانتس ، ترجمة :
ممدوح عدوان ، بحث ملحق بكتاب (دون كيخوته
لثرفانتس) ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ،
هدية جريدة القاهرة الأسبوعية ، العدد ٢٧٥ في

١٩ يوليو سنة ٢٠٠٥ ، ط دار الهدى للثقافـــة ٠
والنشر سنة ٢٠٠٥ ٠

- غبريال وهبة : دون كيشوت بين الوهم والحقيقة ، ط القاهرة ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٩ ٠

- محمد عبد الله عنان : دولة الإسـلام في الأندلـس ، جـ ٧ ، ط
القاهرة ، مكتبة الخانجي ، سنة ٢٠٠٣ ٠

- هنري بيرلين : مقال (ميجويل ثرفانتـس - ذكرى مرور
أربعمائة سنة على مولده) ، ترجمة : ز٠ي٠ع٠
الكاتب المصري ، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ٠

- واسيني الأعرج : مقال (ثرفانتس والجزائر - رحلة البحث
عن الرواية) ، الدوحة ، عدد يونيو سنة ٢٠٠٨ ٠

الفهرس


Bibliotheca Alexandrina
06665822